هل يطرد الفن الشعبى جهاز التليفزيون ؟

كما صادفتنى أسرة فنية من بلدة اسمها (البدرمان) مكونة من أب وابنه و ابنته، فقررت أن أغزو أطراف المدينة بهذه الفرقة تحت اسم بيت الثقافة. ولما لم تكن هناك ميزانية لهذه «الخزعبلات» فقد دفعت لهم أجوراً من ماليتى المتواضعة، وذهبت بهم إلى بيت فى آخر البيوت بغرب المدينة ولما اشتعل العزف والغناء كان ذلك حوالى الثامنة مساءً فى آخر شهر مارس، خرج إلينا الفلاحون بعد أن كانوا قد باتوا فى بيوتهم ولعلهم كانوا يستعدون للعشاء والنوم أو لمشاهدة برامج التليفزيون، لمن يملك جهازاً، ولكن التجربة لم تنجح رغم حدوث نوع من الفرجة، ولكنى شاهدت أنواعاً من الدهشة والتساؤل فى عيون الفلاحين: لماذا جاء هؤلاء؟! ولأى مناسبة ؟ ولأى غرض؟ وقد كان عندهم حق وانتهى الحفل الذى لم يستغرق نصف ساعة أو يزيد قليلاً، فقررت أن أبحث عن حيلة أخرى فدلنى أحدهم على مقهى كبير فى وسط المدينة (على شاطى ترعة) وقالوا لى إن صاحب هذا المقهى «مفتّحْ وابن بلد» وحين قابلته للاتفاق معه وجدته كذلك، وبالفعل تفاهمنا على أن يستضيف فرقتنا لتقديم برنامج فى المقهى، وما عليه إلا أن يرفع سعر المشروبات قليلاً

حتى يحافظ على «كرامة المقهى» حسب تعبيره. تلك المقهى كان يؤمها الشباب والشيوخ فقدمنا برنامجاً من العزف والغناء الشعبى وقام الصغيران (الفتى والفتاة) بالرقص وقد راعيا جداً حد الاحتشام رغم صغر سنهما، ولما نجحت التجربة قلت فى نفسى لقد طرد الراديو شاعر الربابة كما جاء فى رواية زقاق المدق ثم قام جهاز التليفزيون بعد ذلك بطرد الراديو، فهل يطرد الفن الشعبى جهاز التليفزيون من المقهى ويستعيد مكانته القديمة مرة أخرى؟! كان لابد أن تكون هناك ميزانية مخصصة للإنفاق على هذه الفرقة كل ليلة، وهذا لم يكن متوافراً فى ميزانية الثقافة ولا فى جيبى الخاص، فلم أكرر التجربة رغم نجاحها الساحق مكتفياً بأننى صنعت ليلة من السعادة البريئة فى نفوس هؤلاء المواطنين لعلها تصبح ذكرى أو مثلاً .

- ولكننا علمنا أنك نجحت بعد كل هذا فى تقديم مشروعك المسرحى باسم «رحلة بهية» ؟!

حمّلنى عشقى لأعمال نجيب سرور، الذى جاء متأخراً، إحساساً بالذنب تجاهه خاصة حين سمعت نبأ رحيله المفجع، وكانت لى قراءات لنصوصه المختلفة بعضها أخذ بتلابيب انتباهى التام واندهاشى الفنى والفكري، وبدأت أعيد قراءة أعماله أو أغلبها مرات ومرات، حتى تبين لى ذلك الخط المشترك درامياً ابتداءً من ياسين وبهية إلى آه يا ليل يا قمر إلى قولوا لعين الشمس . كان هذا الخط متمثلاً فى بهية التى ظننتها – ولعل نجيب ظنها قبلى – إيزيس المصرية الأسطورة

المعروفة، فقررت أن أضع يدى على الخط / الخيط المشترك بين هذه النصوص الثلاثة التى تتميز بقالب حر من حيث إلبناء والفكر، وتابعت بهية من مسرحية إلى مسرحية ومن فصل إلى فصل ومن مشهد إلى مشهد مع إلغاء كل ما عدا ذلك، مما قد لا يرتبط مباشرةً وبنائيا بالنصوص الأصلية، وحين جمعتها وصنفتها وجدت أن مسرحية كاملة قد تكونت لدىّ ! ! فقمت بطباعتها تحت عنوان «رحله بهية» فوجدتها نصاً مسرحيا يتطلب لأدائه ممثليْن – رجل وامراة – ناضجين فى تكوينهما الفسيولوجى بما يتيح لى تقديم أعمار مختلفة: شباب ونضج ثم كهولة، أى بهية فى كل مراحل عمرها عبر المسرحيات الثلاث مع ياسين الذى سوف يصبح أمين ثم يصبح عطية. بالإضافة إلى فتى وفتاة يافعين هما ياسين الصغير وأمينة اللذين أنجبتهما بهية من أمين فى بورسعيد، أضف إلى ما سبق عددا يتراوح ما بين ١٥، ٢٠ هاويا ليصور الفلاحين والعمال والجنود فى مراحل النص الجديد الثلاثة، يتخذون شكل الكورس أو الجماهير أو غيره، وحينما انتهيت من هذا التدوين – دون أن أضيف لفظة واحدة على النصوص الأصلية – وجدت أننى أمام مسرحية شديدة البساطة والتماسك والوضوح عميقة الدلالة، مسرحية شاملة تعكس تاريخاً كاملاً للأمة المصرية فى عصرنا الحديث فلم أشأ أن أحرمها من البعد الأسطورى فأحيطها بقوسين عند البداية والختام استعرتهما من بداية مسرحية : منين اجيب ناس ونهايتها .

وبدأت تجميع الفريق الباقى من الفرقة القديمة ثم دعوت عدداً كبيراً من الناس حتى ولو كانوا ممن ليس لهم سابقة وقوف على خشبة المسرح، ومضيت قُدُماً فى تكوين فرقة مسرحية كبيرة جديدة أردت لها قدراً من الاستقرار لم أتمكن من تحقيقه كما أرغب وكما يقتضى النص المسرحى و الفن المسرحى أيضاً، وبما يتساوى مع المجهودات التحضيرية الكثيرة التى قمت بها لتهيئة المناخ العام فى تلك القرية /المدينة لاستقبال عمل مسرحى من نوع رفيع، بالإضافة إلى أننى استعرت ممثليْن من فرقة ملوى اللذيْن أظهرا ولاءً دهشت له فظننت أنه من أجل الفن ولكن تبين لى بعد ذلك أنه من أجل المال وتسوية حسابات مع فرقتهما الأم! ! وكان هذان العنصران معولين للهدم لا للبناء، رغم أن لديهما خبرة وكفاءة فى حرفة التمثيل، ثم كان هناك عنصر دءوب على حضور البروفات وإثارة أسئلة كلها تدور حول عدم جدوى المجهود العميق أو قيمة العمل الفنى، ولما كانت لى حساسية خاصة تجاه أيديولوجية اليأس واليائسين فكنت أتعامل معه أحياناً بشئ من نفاذ الصبر والحدة فلاحظت أنه كان يبدى التراجع .هذا الشخص كان له الدور الأكبر فى تعطيل الوحدة الفنية للفريق المسرحى والتجانس الإنسانى بينهم واصطناع حاجز نفسى بينى وبين الأفراد ما أمكنه ذلك، أيضا كانت هناك مشاكل أخرى تتعلق بالتعامل مع المراهقين من الفتية والفتيات فى إقليم لا هو قرية ولا هو مدينة ولا هم فلاحون ولاهم حرفيون مهرة إنما يعانون نقصاً فى التعليم وفى الوعى، كما يعانون قلقاً

حـول المسـتقبل وعـدم تلبيـة احتياجاتهـم المباشـرة علـى المسـتوى الاقتصـادى والنفسـى والاجتماعـى، فمـا بالـك القضيـة العويصـة التـى لم يحلهـا المجتمـع المصـرى بعـد وهـى مشـاكل الجنـس فـى سـن المراهقـة الشـبابية، إذن فأنـا حـين أتعـرض للإخـراج فـى أى موقـع فأنـا أجـد نفسـى أقـف فـى مواجهـة مباشـرة ومكشـوفة مـع مجتمـع تم تشـويهه بتدمـير البنيـة التعليميـة والبنيـة الاقتصاديـة الزراعيـة التقليديـة والبنيـة الأسـرية مـع محـو تـام للبنيـة الثقافيـة الموروثـة مـن آلاف السـنين دون خلـق بديـل قـوى وصـالح.

- كان عليـك مواجهـة منظومـة قيـم اجتماعيـة ومفاهيـم أخلاقيـة مناوئـة؟

اضطـررت مثـلا، لعمـل فصـل خـاص بالآنسـات اللواتـى سـوف أختـار مـن بينهـن «بهيـة» البطلـة، وبالطبـع كان هـذا الفصـل يُعقـد فـى الفـترة المسـائية بمدرسـة إعداديـة بالمدينـة فقمـت بإصـلاح الكهربـاء فـى هـذا الفصـل وتعليـق إضـاءة قويـة سـاطعة وكمـا يقولـون مراضـاة السـاعى والحـارس وغيرهمـا، ومـع ذلـك لم أنـجُ مـن حمـلات تفتيشـية مفاجئـة مـن أشـخاص لا صفـة لهـم بـل طفيليـون متطوعـون، حتـى لا أكـون قـد انفـردت بهـؤلاء الفتيـات اللواتـى يزيـد عددهـن عـن العشـرة فـى حفـل جنـس جماعـى أكـون أنـا البطـل الوحيـد فيـه؟!

والعجيـب أن فتـاة واحـدة اسـتمرت فـى هـذا السـباق حتى فازت بـدور بهيـة رغـم أنهـا مـن الناحيـة الفيزيقيـة لم تكـن تصلـح فهـى سمينـة طفوليـة الوجـه، ولكنـى لاحظـت ذكاءً حـاداً فـى عينيهـا

الصغيرتين حيث كانت تلتقط المعانى وليست مجرد الكلمات. إنها (جيهان محمود) الحاصلة على دبلوم التجارة، هذا الدبلوم الذى يشكل سداً منيعاً يحول دون مستقبل الآلاف من الحاصلات عليه.

كما طلبت من مدرسة الموسيقى أن تقوم بتدريب الفتيات على الغناء أو تحسين أدائهن الفنى من الناحية الصوتية، لذا كان علىّ أن أحارب فى عدة جبهات منها جبهة الفتيات والمحظورات والأهالى وأيضاً جبهة الفتية المراهقين بأفعالهم الرديئة ومغامراتهم الحمقاء ثم جبهة إدارة بيت الثقافة التى تكره الثقافة خاصة المسرح عدا سيدتين فاضلتين هما هدى ورؤيا بالإضافة إلى جبهة مجلس المدينة التى تزعم ضرورة أن يتم كل شيء مالى و إدارى و أمنى بحكم القانون وبعلمه وتحت إشرافه وعيونه، وجبهات أخرى عديدة بعضها معلن وبعضها خفيّ.

- وماذا عن مدى صلاحية خشبة المسرح للعروض؟ فعلى حد علمى إن معظم المسارح تكاد تكون متهالكة، الأمر الذى يعوق الإبداع ولا يسمح إلا بالنذر القليل منه؟

فوجئت بخشبة المسرح المبنية من خشب قديم يؤذى كل شيء يلمسه أو يجلس عليه فى مساحة ٤٠ مترا مربعا فقط، وهى لا تصلح للعمل المسرحى وأن المسرح لا توجد له كواليس إلا غرفتين خلفيتين كل منهما يؤدى إلى باب صغير، اليسرى تشغلها شركة كمبيوتر مقرها ملوى ولم أستطع العثور على اسم مؤجرها والأخرى مليئة بكراكيب قيل لى إن هذا هو المخزن، ولكننى علمت أن ليس بها شيء له قيمة، وأنها– فقط– يقيم

بهـا بعـض الحشـرات مثـل الثعابـين والعقـارب، أمـا دورة الميـاه فمسـدودة ونتنـة إلى حـد لا يطـاق، وكافة أجهزتهـا محطمة، فقررت أن أسـتخدم كل الوسـائل المباشـرة وغـير المباشـرة لتغيـير هـذا الوضع الشـائن، واتفقـت مـع مقـاول العـام الخـاص بمجلـس المدينـة علـى التدخـل متعهـداً لـه أن أموّلـه مـن جيبـى الخـاص. ولما كان المقـاول مشـتبكاً بالفعـل فـى عمليـات بيـاض وتنظيـف للقاعـة وغيرهـا اسـتعدادا لعيـد المنيـا القومـى يـوم ١٨ مـارس. فـكان الأمـر سـهلاً بالنسـبة لـه وأرخـص، الأمـر الـذى أدى إلى أننـى عُـدت مضطـراً إلى القاهـرة وسـحبت أربعـة آلاف جنيـه مـن رصيـدى الشـخصى الـذى كنـت أحتجـزه لإجـراء عمليـة جراحيـة هامـة وضروريـة، ثـم تفاهمـت مـع المقـاول علـى تنفيـذ كل مـا أطلبـه منـه مـن نقـودى الخاصـة، بالإضافـة إلى الدعـم الـذى قدمـه لـه حشـمت البنـا رئيـس إقليـم وسـط وجنـوب الصعيـد، وعلـى مـا أذكـر كان المبلـغ عشـرة آلاف جنيـه، فشـرعنا فـى عمـل صيغـة جديـدة للقاعـة والمسـرح تجعـل منصـة العـرض بمسـاحة ١٠٠متـر حتـى تصبـح لائقـة إلى حـد مـا بتقديـم عـرض مسـرحى متواضـع، ورغـم المشـاكل بـل والمعـارك التـى دارت بينـى وبـين بعـض العناصـر العفنـة، مازالـت العلاقـات بينـى وبـين هـؤلاء البسـطاء قويـة ومتينـة الأواصـر إلى حـد أن إبراهيـم عبـد الظاهـر كبـير الفنيـين فـى سـوهاج أغاثنـى حـين كنـت أعمـل هنـاك عـام ١٩٩٨ بسـيارة نقـل وضـع علـى متنهـا كل مـا فـى متنـاول يـده مـن معـدات صـوت وإضـاءة، وجـاء بهـا إلى ديرمـواس – أى بعـد مـرور١٢ سـنة مـن تجربـة سـوهاج!! – كـى يسـاعدنى فـى عـرض «رحلـة بهيـة بـدون اى مقابـل»!! .

- ولكنك متهم بأنك تتفادى حضور لجان متابعة وتقييم لعروضك. فما هو تعليقك؟

فى عرضى الأول «منين أجيب ناس» حضر كل من عبد الرحمن الشافعى وعمر البرعى وكانت شهادتهما أفضل من توقعي، كما سبق أن أشرت . وفى عرض «احكم يا جناب القاضي» لفرقة المنيا المسرحية، قد أخطأت حين تعجلت قدوم اللجنة وأنا لم أنضج البروفات بعد، وكانت ليلة البروفة الجنرال التى أردت أن تشهدها اللجنة لليلة ممطرة وباردة إلى درجة تقارب الصفر، فاتخذت اللجنة موقفاً متشدداً وغير مراع للواقع، غير أننى واصلت العمل بالمنيا حتى تحققت لى ليلة نجاح باهر فى أسيوط لم أحظ بمثلها طوال حياتى سواء فى المسرح أو غير المسرح وقد حضرتها لجنة مكونة من النقاد أمير سلامة و حازم شحاته و عبد الغنى داود فكانت سعادتى غامرة، وهذا العرض هو نفسه الذى سقط فى مهرجان بورسعيد سقوطاً فاضحاً بسبب تخريب عمدى تم تدبيره فى إدارة ثقافة المنيا، بالإضافة إلى أن شباب المجاميع لم يكن قد سبق لهم الخروج من محافظة المنيا من قبل فاستولت عليهم حالة ما يمكن أن نسميها صدمة حضارية.

أما بالنسبة لعرض «رحلة بهية» فى ديرمواس فقد أحاطت به ظروف مريبة، ففى حين تخلت إدارة بيت الثقافة عن واجبها ومسئوليتها فى رعاية هذا العرض وحمايته وتوفير كل الظروف المكنة لاستكماله وإنجاحه بل وزجت عناصر مشاغبة

داخل العمل ولم تتخذ أية مواقف أمام أى تصرف غير مسئول من عناصر عديدة، فعلى سبيل المثال كان يوجد فى الفريق رجل له بنتان يريد أن يثبتّهما فى الأدوار الرئيسية خاصة دور بهية الذى كانت تقوم به الممثلة الصغيرة جيهان حتى يضمن ثلاثة أنصبة له ولأسرته من قائمة الأجور فحين علم- بحكم صلاته الواسعة بسكان المنطقة وما حولها- أن للفتاة البطلة «جيهان» أعمام لهم صلة ما بما يسمى «الجماعات الإسلامية» فقام بتحريضهم وتحريكهم تحت شعار أن عمل الفتيات فى المسرح حرام !!، فما كان من هؤلاء إلا أن ذهبوا إلى شقيقهم والد الفتاة وطالبوه بمنع ابنته من العمل أو الذهاب إلى المسرح، ولما رفض الرجل ذلك، متمسكاً بحق ابنته فى ممارسة ما تراه مناسبا لها قائلاً لهم إنه داوم على حضور البروفات ودعاهم لكى يشهدوها معه لأنه يعتقد أن المسرح على هذا النحو يقوم بمهمة نبيلة، ولكنهم كانوا من ضيق الأفق والتعسف - بالإضافة إلى تحريض هذا العنصر المخرب- فرفضوا ولم يقفوا عند حدود الرفض، فقاموا باختطاف شقيقهم الأكبر وابنته لديهم فى قرية الأشمونين القريبة، فتعثرت البروفات نتيجة لذلك فى حين لم يبلغنى أحد بأى شيء حول هذه الأمور فاضطررت بحسن نية وظن تامين، إلى أن أستعين بالفتاتين ابنتا الرجل المحرض المخرب، فأحسست أن هناك مؤامرة ما خاصة بعد أن بدأت بعض أصوات العناصر التى استقدمتها من فرقة ملوى تعلو وتطلب طلبات استثنائية وتتحكم فى مواعيد البروفات مصرّين على العودة إلى منازلهم مبكراً بحجة

المواصلات وخطر الإرهاب والشرطة!! فى حين أنهم كانوا يتأخرون معى إلى منتصف الليل قبل هذا الموقف، هنا أدركت أن المسألة تفلت من يدى فسارعت بإنهاء الأمر وإقامة العرض بصورة كروكية غير ناضجة حيث إن أشياء كثيرة لا أعلمها- أو أعلمها- تدور رغما عنى دون أن أستطيع أن أتخذ موقفاً تجاه هذه المسائل، هنا ظهرت الممثلة الأصلية جيهان - جاءت تطالب بأدائها للدور بعد أن أعيدت إلى منزل أسرتها بدير مواس مع الوالد الذى أنهكته التحقيقات والاستجوابات التى أجرتها معه الأسرة والقبيلة فى الأشمونين فعاد مريضاً عنيداً وظل هكذا حتى رحل عن دنيانا بكل أسف، هنا حزمت أمرى وتركت المكان كله مديرا ظهرى لهذه التجربة الصعبة متلقياً طعنات الغدر والخيانة تلاحقنى الشكاوى الكيدية والأراجيف الكاذبة والاتهام والتجنى والتحرّش بشخصي، فقام حشمت البنا بالتحقيق بشخصه فى هذه الحكاية لكى يفصل بين وقائعها ليفرز الوقائع الحقيقية عن الوقائع المزعومة وعاد ليكتب فى تقريره العبارة الآتية:

«لقد ذهب الأستاذ مهدى الحسينى ليخرج مسرحية داخل قاعة متواضعة فى مبنى مجلس المدينة ولكنه قام بإخراج مسرحية كبيرة مسرحها هو المدينة بأسرها وممثليها وكل من أراد المشاركة من السكان فيها .. لقد أخرج ديرمواس كلها حين قام بالجلوس على المقاهى و زار البيوت وفتح الحوار مع أناس كثيرين يعرفهم ولا يعرفهم»، وجد حشمت البنا أنهم هناك يعرفوننى جيداً من خلال بناتهم وأبنائهم الذين حرصت

علـى إشـراكهم فـى العمـل بوفـرة حتـى أوسّـع مـن مسـاحة الوعـى والمشـاركة والاهتمـام بالثقافـة والفنـون بـين هـذه الأجيـال الجديـدة المعذبـة.

أمـا عـن عـدم حضـور لجنـة متابعـة فقـد طلبـت الإدارة ذلـك منـى عـدة مـرات، ولكننـى طلبـت منهـم التأجيـل لحـين إنضـاج العـرض و حـل مشـاكله حتـى لا أكـرر تجربـة المنيـا.

إن العمـل المسـرحى فـى الأقاليـم ليـس عمليـة إجرائيـة: نصـا وعمـل البروفـات ثـم افتتـاح عـرض. إنهـا عمليـة أعمـق وأوسـع مـن ذلـك بكثـير، يشـتبك فيهـا الإبـداع مـع المجتمـع فـى معركـة تفاعـل سـاخنة يفنـى فيهـا غـير الصـالح ويبقـى فيهـا المفيـد. هـذا هـو المفـروض ولكـن حالـة التراجـع الحضـارى و الانهيـار المجتمعى التـى نعيشـها الآن تأتـى بعكـس المطلـوب، غـير أننـى لم أخلـف رمـاداً أو دمـاراً فـى ديرمـواس؛ فمـا زالـت للتجربـة آثارعميقـة ورثهـا أنـاس لم أقابلهـم ولم أعمـل معهـم و لم أعرفهـم، كلمـا قابلونـى صدفـة طالبونـى بـأن أعيـد التجربـة، ولكـن الـذى يمنعنـى هـو أننـى مـع التقـدم فـى السـن لا أسـتطيع احتمـال هـذا الجهـد مـرة ثانيـة.